التعريف بالإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

الإسلام
انطلاق ... لا جمود

تأليف
مصطفى الرافعي

يشرف على إصدارها :
محمد توفيق عويضة

الكتاب الثلاثون
١٣٨٦ - ١٩٦٦

اهداءات ٢٠٠١

أ.د. محمود ديب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

التعريف بالإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

الإسلام

أنظار ... لا جمود

تأليف

مصطفى الرافعي

يشرف على إصدارها :
محمد توفيق عويضة

الكتاب الثلاثون

١٣٨٦ - ١٩٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كلما امتد عمر الانسان الحضارى ازدادت تبعاته ، واتسعت أمامه مبادين العمل والبناء ، وتشعبت حوله طرق التطور والارتقاء ، فما كان يحمله على عاتقه — وهو فى الالف الاول من سنى حضارته — ليس شيئا البتة اذا قيس بما يتراكم على عاتقه فى النصف الاول من الالف الثانى ؛ من متطلبات الحياة ، ومرافق النماء ، ووسائل العيش ، ومخاطر الوجود .

فخمسمائة عام كفيلة بأن تقلب مفاهيم العقل ، وأساليب المنطق . وأسس العلم . فما هو ثابت فى أولها يصبح لاغياً فى آخرها ، وما هو بديهى فى بدايتها ينقلب خرافيا فى نهايتها ؛ ولا يعوزنا التدليل على ذلك فهو بين واضح لكل ذى عينين .

ولست أدرى ، هل تكون نتائج الثورة الحضارية الجديدة ، التى تلف العالم من أقصاه الى أقصاه ، فى صالح الانسانية ومن أجل رخائها ، أم تكون هى الخطوات التى تنهى بها البشرية دورها ، والسطور الاخيرة التى تختم بها مسرحيتها . فالدلائل كلها تشير الى أن كل أربع وعشرين ساعة يضيفها الزمن الى عمر المدنية تزيد من انطلاقها فى المغامرة ، وشراهتها لتحقيق الفتوح ، وتضاعف فى تعشقها لفض المغاليق وتشوقها لحل المبهمات .

ولكن .. هل انتهت أزمة « الانسانية » ؟

وهل وجد الانسان ضالته المنشودة ... « السعادة » ؟

هل تآصر بنو آدم لتوفير الرخاء والهناء لبنى آدم ، أم انهم تآمروا على اقتسام الغنائم ، واستهام الانصبة فى الجهات الاربع من هذه الدنيا ؟

لن ارتجل جواباً لهذا التساؤل ؟

ولكننى أذكّر المتفائلين بالتاريخ نفسه .. تاريخ الحروب والايام الحالكة ، والدماء المراقة والمدن المدمرة ، والشعوب المشردة ، والبلاد المقسمة .

أذكرهم ــ ولعلهم لا ينسون ــ بأن فترة السلام كانت دائماً ، فترة قصيرة من عمر الانسانية تتخذها مهلة للاستعداد لحرب جديدة ؟ وان هذه الفترة لو امتدت طولاً وعرضاً ، لما كان امتدادها ــ ابداً ــ كافياً لتعمير ما هدمته الحروب ، ولتشييد ما قوضته الاسلحة ؟ . وأبرز دليل على ذلك ان الانسان المتحضر ، عانى فى أقل من نصف قرن من الزمن ، حربين عالميتين ، قدم خلالهما مئات الملايين من الاضاحى الغالية ، وحول فيهما عامر الارض غامراً ، ودمر امهات المدن .

وفى هاتين الحربين بددت الانسانية المتسدينة ثروتها كلها ــ وتقدر بالبلايين ــ ثمناً للنار والبارود ، ومن أجل آلات الموت والافناء ، وفيهما أيضاً جعلت الانسانية عيالها ، وشبانها ، وشاباتها ، واشلاء قتلاها ، جعلت كل ذلك حشواً للمدافع ، وطعاماً للهب .

وماذا كانت نتيجة الاحتراب الطويل ؟ ــ وقد عرضت بايجاز صورة أخيرة منه ــ وهل وجد الانسان نفسه فى منجى من العاصفة ؟

هذا هو أمل الانسان .. الامل الذى يتضاءل وتتهارب أخيلته الحلوة ، أمام نذر الحرب التى تحوم فى الاجواء العالمية ، وتهدد بالفناء كل ذى عرق نابض .

لقد قدح المفكرون زناد أدمغتهم ، وابتكروا مخارج عدة للأزمة الخانقة ، ابتكروها فى أثواب نظرية براقة ، يخيل للناظر اليها من بعيد ، انها هى آخر المطاف فيما يتعلق بالتنازع الفكرى ، وانها هى الجنة المرتقبة التى يحلم بها البائسون على الارض ، وانها هى خشبة الخلاص التى ستنقذ الانسانية المشرفة على الغرق .

ابتكروا : الديموقراطية ، والملكية المقيدة ، والديكتاتورية ، والشيوعية والرأسمالية ، والوجودية ، والبيروقراطية ، والبورجوازية ، الى آخر تلك المذاهب السياسية الحديثة التى يضطرم حولها النقاش ، وتضطرب هى فى الحياة ، وتحاول كل منها أن تضم حول نفسها أكبر عدد ممكن من الانصار . وأخيراً .. ظهرت الى الوجود نظرية أخرى هى : القومية ، تقاطرت الشعوب على منهلها ، واستقت من مبادئها ، وآمنت بفكرتها ، وتطرف فريق من الناس فى فهمها وتطبيقها ، واعتدل فريق آخر وسرت القومية سريان النار فى البلاد العربية ، وأصبحت عماد النهضة ، ومعقد الامل ، ومحور العمل الايجابى والتفكير السياسى .

فاين يقف الاسلام فى زحمة هذه المبادىء ، وضوضائها الكبرى ؟

بل اين تقف هذه المبادىء وتلك النظريات من الاسلام ؟

ان قارىء هذا الكتاب يجد الاجابة على هذه الاسئلة ويجد ان هذه الاجابة لا تخرج عن السرد المنطقى لتفاعل هذه النظريات ، والبيان الصريح لامتدادها حيناً ، وانكماشها حيناً آخر ، ووضوحها تارة ، وغموضها تارة أخرى ، ولا تتخطى الايضاح المنهجى بقولنا ان هذه النظريات ليست الا محاولات جديرة بالاعتبار والتقدير ، قامت فى اطراف الارض ، لاسعاد بنى الانسان ، ولكنها للأسف لم تحقق شيئا من ذلك ! .

ان هذه المحاولات أشبه ما تكون بأدلة متماسكة النسج ، قوية التركيب فصيحة المنطق ، غير انها تساق فى معرض الدفاع عن متهم محكوم عليه ؟

انا نرى أن الانسانية تعانى امراضاً خطيرة ، قد يكون فيها فناؤها ، ولسنا نشك بأن المحاولات النظـرية التى برزت خلال النهضـة الانسانية الاخيرة ، لتفادى الكارثة ، أثرت تأثيراً موضعياً ، أشبه ما يكون « بالمخدر الطبى » الذى يؤجل الالام ولا يقضى عليها .

ومن خلال ابحاث هذا الكتاب يلاحظ القارىء اننا قمنا بجولة فى سوق النظريات ـ ونحن نحمل الاسـلام فى صميمنا ـ ورحنا نلاحظ ما يباينه ويجافيه ، ونظهـر ما يواكبه ويجاريه ، ولم نخرج من هذه الجـولة بنتيجة محددة ، ولا حملنا القارىء حملا على رأى معين ، أو اعتقاد محدد ، بل تركناه يزاملنا فى الطريق ، ليتحقق فى النهاية من ان : (الاسـلام انطلاق لا جمود) وليكون له فى هذه المباحث خير معوان على الهداية والاصابة وحسن التمييز .

والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق .

مصطفى الرافعى

الإسلام عبر العصور

* ان الاسلام لم يتغير ولم يتبدل رغم تطاول الايام عليه وتصارع المدنات حوله ، وليس بينه وبين أى عقيدة أخرى عداوة ولا خصام وهو لا يضمر الحقد لأى دين .

* ومن حسن حظ الاستعمار ان هذه البلاد كانت تخضع ـ فى آخر أيامها ـ لحكم يحمل الاسم الاسلامى وليس فيه شىء من روحه أو مقاصده .

* ان مستقبل الاسلام زاخر كالبحر ، والشعوب الاسلامية تتفاعل فى رحابها قوى ناشئة ، وطاقات فتية خلاقة . فعليها وعلى الأديان السماوية عامة أن تبدأ جهادها فى اعادة البناء .

ولقد تطوعت بعض القوى فى فترات قصية ودانية ، وعصور ماضية وحاضرة ، على الايقاع بين الاسلام بالذات وبين المدنية ، واظهار هذا الدين الحنيف بمظهر المبدأ المتعنت المستبد ، والذى لا تسرى فى أوصاله الحياة الا اذا تغذى من دم المدنية المسفوح وثقافتها المبددة .

رسالتنا :

ودراستنا الآن حول الاسلام فى أمسه ، وحاضره ليست الا قصة صادقة عن هذه العقيدة عبر فترتين متباينتين من التاريخ ، نهضت فى أولاهما نهضة جبارة ، وسكنت فى ثانيتهما سكونا عجيبا . ومن حق الاسلام علينا ،

ونحن رواده واتباعه ، ان نظهره للملأ عذباً صافياً كما تنزل من السماء وان ندرسه كمبدأ وعقيدة ، تقف وجهاً لوجه مع الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية وسواها من مبتكرات العقل الانسانى وان نلم بجوهره وروحه ليتسنى لنا من بعد ان ننفى عنه الاوشاب والاعراض ، وان ننزه وجهه الكريم من الكلف المفتعل ، وخصوصا بعد ان استغل هذا الدين اعداؤه ، ونسيه ابناؤه فى عصور الجهالة والظلام .

حقيقتـــان :

وقبل ان انتقل الى صلب الموضوع ، أحب أن أقرر أمرين لا جدال فيهما ولا شك فى صدقهما وهما :

أولا ــ ان الاسلام كدين سماوى لم يتغير ولم يتبدل رغم تطاول الايام عليه وتصارع المدنيات حوله . فالقرآن ، كلام الله العلى الاعلى ، ما فتىء الينبوع الاول الذى يسقى هذه الدوحة الشامخة العملاقة الممتدة الفروع والأغصان والاظلال ، وسنة الرسول ما فتئت المشكاة الهادية . امـا الذين تغيروا وتبدلوا وباعدهم حاضرهم عن أمسهم ، اما الذين أضاعوا القـرآن وضلوا سواء السبيل ، فهم المسلمون اتباع ذلك الدين الذى كا ن نظامـاً وعقيدة ، ففهموه اليوم مجرد شعائر تقليدية ، ومظاهر عادية لا جدوى فيها ولا عطاء .

ثانيا ــ ليس بين الاسلام وبين أى عقيدة أخرى أو شعب آخر عداوة تقليدية كما يدعى بعض انصاف المتعلمين ، وهو ، كفكرة ، لا يضمر الحقد لاى دين آخر كما يحلو لبعض تجار الأديان ان يتخرص ويختلق . وسنعرض لهذه الناحية بالتفصيل الوافى فيما بعد ، والذى يهمنا ذكره الآن هو تعليل الخصام بين الاسلام ، أو على الاصح بين المسلمين وبين سواهم .

الاسـلام بين الشرق والغرب :

لقد ولد الاسلام ، فى الشرق ، شأن باقى الاديان السماوية ، ولـم يحالفه الحظ ، أو على الاصح لم يحالف جنوده التوفيق فى غزو الغـرب واخضاعه لمنهجهم فى الحياة وطريقتهم فى العيش .

غير أن هذا الوضع لم يكن عائقاً لان تتوطد الصداقة بين الشرق المتدين والغرب المتدين ، وتلك هى أخبار (شارلمان) والرشيد غنيـة عن الدلالة والترديد .

وتوثقت أواصر الاحترام بين الشرق والغرب ، وشاء سوء الطالع ان يسير كل من الصديقين الودودين فى اتجاه مغاير للاخر ، وتعاقبت الاجيـال وتغيرت الاحوال حتى كان هذا العصر ، فاذا بالغرب قد تخلص من قيـود دينه السـماوى وتنكر لمفاهيمـه ، وتمنطق بالعقل الانسـانى ، وبالمقدرة البشرية ، وسار أشواطاً بعيدة فى هذا السبيل . اما الشرق فقد فعل العكس تماماً وما زال يراجع نفسه ويطالع أمسه ويقلب تراثه السماوى بـين يديه حتى بليت يداه واعتل فهمه ، وسقمت حيويته وشلت حركته وغفا ردحـاً طويلا من الزمن .

جرثومة الاسـتعمار :

ومن هنا ، من وهن هذا وتطلع ذاك ، من خمول هذا وطمـع ذاك ، نشأت الجرثومة القاضية التى نخرت جسم البشرية.. نشأ الاستعمار وملأت تلك الفكرة بصورها الخلابة ، من سيطرة وتسلط وثروة وملك ، ادمغـة العالم الغربى فى العصر الذى يسميه المؤرخون عصر النهضة .. وبرزت الى الوجود صور الخصومة الحادة حينـاً والدامية حيناً آخر بين الصـديقين القديمين لتخلى كل منهما عن كنزه واقلاع كل منهما عن فكرته .

نظرة على المـــاضى :

بعد أن قدمنا هذه الايضاحات الاساسية بالنســبة لحقيقة الاسلام ، والهامة بالنسبة لبحثنا ، ينبغى ، لنا ، كى نستطيع ان ننقل القارىء الى جو الاسلام الصافى وننقل اليه روائع صوره وبدائع أعماله ، ينبغى لنا أن نعود بالزمن القهقرى خمسة عشر قرناً ، الى العصر الجاهلى الاعمى ، الى عصر الضياع الروحى وقلق المصير ، يوم كانت جزيرة العرب تغرق فى الجهـل والظلام والدم والفتنة ، ويوم كانت الكلمة فيها للسيف الراعف والساعد القوى ، ويوم كانت مصائر الناس ومقاديرهم فى قبضة وثنية ساذجة ، ويوم كانوا هم أنفسهم عبيدا لأصنام لا تجلب نفعا و لاتدفع ضرا ، أصـنام مع نحاس بليد جامد ، أو من تمر يلتهمه عباده اذا جاعوا .

بداية المعجزة :

فى تلك الغمرة من الضلال ، أشرقت فى بيت من بيوت قريش طفـولة كانت فى سجن الزمن صفحة بعث وانطلاق .. فلقد ولد محمـد بن عبدالله وولد معه تاريخ جديد حافل بالاحداث التى قدر لها ان تكون يوماً مرتكزاً لنهضة جبارة ، وغد مجيد .

وشب اليتيم ليضطلع باعباء الرسالة ويشن على الوثنية حرباً لا هوادة فيها ولا لين ، ويدعو الى اله واحد لا شريك له ، ويركز فى نفوس العرب قيماً جديدة قامت عليها ركائز وثبتهم الكبرى التى حركت ركب الانسانية ودفعته بقوة وعزم الى الطريق السوى والحق المبين .

وقضى محمد وله من العمر ثلاث وستون سنة ، فما هى التركة التى خلفها للبشر من المبادىء والأسس والأصول ؟

حقوق الانســـان :

أما حقوق الانسان فقد كان محمد أول واضع لهذه الحقـوق التى ادعتها الثورة الفرنسية فلخصها قادتها بكلمات ثلا ثأو شـعارات ثلاثة : الحرية والمساواة والاخوة . ثم انبرت أميركا بعد ذلك تزعم لنفسها السبق وتعلن فى وثيقة الاستقلال عام ١٧٧٦ انها تعد الحقائق التالية من البديهيات :

* خلق الناس جميعا متساوين . وقد منحهم الخالق حقوقا خاصة لا تنتزع ، منها : الحياة والحرية والسعى وراء السعادة .

* اما المساواة ومعناها أن يكون الناس جميعاً متساوين امام القانون، متساوين فى الحقوق والواجبات ، فقد أكدها محمد بقوله : « الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » و « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ولم يكتف بالقول المجرد بل أتبعه بالعمل الحازم العـادل . واجاب صحبه حين طلبوا منه العفو عن سارقة لشرف أسرتها ومكانتها : « انمـا أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا اذا أذنب الضعيف فيهم عاقبوه واذا أذنب الشريف تركوه والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها » .

* واما المساواة فى القضاء فلم تكن للنبى العربى سوى مجلس قضائى واحد يمثل أمامه الناس كلهم دونما تمييز بين رفيع ووضيع ، وغنى وفقير .

* واما المسـاواة فى التوظيف فليس أدل عليهـا من هـذا الحديث الشريف : « من ولى رجلا شيئاً من أمور المسلمين وهو يعلم أن فيهم من هو أولى منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين » .

* ومثل هذا يقال فى الضرائب فانها تجبى من الناس على قدم المساواة فمن كثر ماله كثرت تكاليفه ومن قل ماله قلت تكاليفه .

* واما الاخوة فالنبى العربى هو أول من نادى بالاخـوة العقائدية والاخوة الانسانية : «انما المؤمنون اخوة» والانسان أخو الانسان أحب

آم كره، وهو أول من آخى بين الأنصار والمهاجرين حتى تقاسموا البيوت والاموال ، وأول من خص الفقراء والمساكين بحظ موفور من موارد الدولة حتى بات هؤلاء يشعرون بالوجود الصحيح والكرامة الكاملة في أمتهم وشعبهم . ولقد تأثر خلفاؤه من بعده بهذا السلوك الانسانى الرفيع ، فأعطوا الاماثيل فى التغاضى ، وما ونوا عن الجهاد لتحطيم الحواجز الطبقية واشاعة المساواة والعدالة بين الناس .

* أما الحرية .. فقد هيأ لها الاسلام أنقى الاجواء ؛ لقد حرم الشرك بكافة صوره وحاربه بكافة أشكاله ، فالله العلى الاعلى هو وحده رب الناس فمن يعبد غير الله فهو مشرك ، ومن يستعبد غيره فهو أيضاً مشرك ، وفى هذا قضاء على كل أنواع العبوديات . لقد حرر الاسلام الناس من الرق أولا ، حرر أجسادهم من سوط السيد وطغيانه ، ثم حرر بعد ذلك أفكارهم وعقولهم ، وفى ظل هذا التسامح وقف خليفة قوى الشخصية عبقرى الرأى هو عمر بن الخطاب وصاح فى وجه أولئك الذين يطمعون فى استعباد الناس واذلالهم صيحته التاريخية المشهورة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

الاسلام والعقائد :

ان أنصع صفحة ترصع تاريخ الاسلام هى الصفحة التى خلّفها بعلاقاته مع الاديان وآثاره فى معاملتهم . لقد كان لقاؤه مع المسيحية واليهودية لقاء محبة واحترام : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » . وكان شعاره فى رسالته : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، كما كان شعاره فى دعوته : « لا اكراه فى الدين »

ويحق لنا أن نقول بفخر ان الاسلام كان يحمى حرية المعتقد ، ويحتضن بالذات أهل الذمة .

ولم يسمع عن رسول الله وعن خلفائه من بعده انهم قتلوا نصرانياً لانه لم يسلم ، ولم يسمع عنهم انهم عذبوا كتابياً أو سجنوه أو منعوه من التعبد واقامة شعائر دينه ، ولم ينقل عنهم انهم خلال فتوحاتهم الحربية ودعواتهم السلمية ، هدموا كنيسة أو قوضوا بيعة وانما قال التاريخ : ان رسول الله صالح نصارى نجران فكتب لهم عهداً جاء فيه :

« ولنجران وحاشيتها جـوار الله وذمة محمد على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعتهم وغائبهم وشاهدهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش » .

المسـلمون وأهل الكتاب :

ولقد كان للاسلام مع أخوانه اتباع الاديان السماوية الاخرى قصص يرويها التاريخ باعجاب واكبار وتقدير ، اعجاب بالدين الذى حارب من أجل العدالة وبذل من أجل سيادة الحق ، وتفانى من أجل الكرامة الانسـانية ، الدين الذى لم يكن بينه وبين مواطنيه من اتباع الديانات الاخـرى ولاء محتوم ولا طاعة مفروضـة ، بل كان من صور هـذا الوفاء ، كما حدثنا البلاذرى فى فتوح البلدان انه لما جمع هرقل جموعه ، وجيَّش جيوشه وسار الى المسلمين ، بعد أن خرجوا من وقعة اليرموك وأكاليل الغار على نواصيهم وبعد أن كانوا قد استوفوا الخـراج من أهل حمص ليدفعـوا عنهم أذى الحرب وليغنوهم عناء القتال . قال البلاذرى : « رد المسلمون على أهـل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص ، لَولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم ولندفعن جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم » .

وقال البلاذرى أيضاً : « ونهض اليهود ـ اليهود أنفسهم ـ قائلين : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا ان نغلب ونجهد . فاغلقوا

أبواب المدن وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود » .

رأى مؤرخ غربى :

ولنستمع الآن الى مؤرخ آخر ، انه (آدم متز) حيث يقول :

« ان بعض الخلفاء كانوا يحضرون مواكب النصارى وأعيادهم ويأمرون بصيانتها وان الحكومة فى حالة انقطاع المطر كانت تأمر بتسيير مواكب يسير فيها النصارى وعلى رأسهم الاسقف واليهود ومعهم النافخون فى الابواق ، وان الاديرة كذلك ازدهرت وتكاثرت » . ولم يقف تسامح المسلمين عند هذا الحد ، فهذا آدم متز يقول مظهراً استغرابه وتعجبه : « من الامور التى نعجب بها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين فى الدولة الاسلامية فكأن النصارى هم الذين يحكمون المسلمين فى بلاد الاسلام » .

جريمة الاستعمار :

ان ما فتحنا عليه أعيننا من انشقاق وطنى وتباعد عاطفى ، وتباين فى الغايات والاهداف .. كل هذا صنعته أيدى المستعمرين .. فانهم لم يجدوا حيلة انفذ ولا وسيلة أدهى من أن يلبسوا مسوح المتدينين ، ويعلقوا على صدورهم أوشحة الصالحين ويرسموا على وجوههم براءة القدسين ، وهم — فى الواقع — أبعد ما يكونون عن طهارة الدين وترفع رجاله ، ونواياهم ادنى من أن توصف الغيرة على مصالح الاله ، لانهم يعبدن أنفسهم ، ويقدسون مصالحهم ، ويحترمون تجارتهم ، وما الله والدين من بعد ذلك الا وسيلة ناجحة يفتحون بها أسواقاً جديدة ، ويستعبدون بها شعوبا ضعيفة ، ويمتلكون بها بلاداً واسعة غنية .

ولقد كان من حسن حظ الاستعمار فى السابق ، أن هذه البلاد خضعت فى آخر أيامها لحكم يحمل الاسم لاسلامى وليس فيه شىء من روحه أو مقاصده

وليس له مثل طريقته أو منهجه ، وكان المسلمون تائهين فى غمرات من العماية والجهل والفوضى ، جعلت بلادهم مسرحا عجيبا من المتناقضات والمتباينات . فباسم الدين ولصيانة الطوائف ، تقيم هنا دولة من الدول ، وباسم تحضير الناس وتمدينهم تقيم دولة هنالك ، ولا تتورع هذه الدولة من أن تحتضن زوراً وبهتاناً طائفة من الناس وتصطنعهم لنفسها ، لتقف فى وجه الدولة الاخرى التى تحتضن طائفة أخرى .

وياويح الشرق ! لقد لبث فترة طويلة من الزمن ، تحارب يمينه شماله ويقاتل شقيقه شقيقه ، ويجد النار مندلعة فى داره ، يحترق منها كبده ولا يدرى انه هو وقودها ، وان أبناءه هم حطبها ولهيبها ، ولا يدرى انه هو مغمّض العينين الى هاوية ليس لها قرار .

لا تعصب فى الاسلام :

لم أنشأ التبسط فى هذه النقطة الالأفى وعدا قطعته من قبل بأن أظهر انسجام الاسلام فى حقيقته مع غيره من العقائد ولأقرر أمراً هو ان الاسلام فى صفاته بعيد جداً عن التعصب ، وان الجهل أو الغرور أو الدس الاجنبى أو هذا كله مجتمعا هو الذى أثار فى فترات مختلفة من تاريخنا شيئاً من الحقد والريبة وروح العداء بين المسلمين وغير المسلمين .

غير ان الامل يخضوضر الآن فى نفوسنا ، ويملأ ثقة وايمانا بوحدة الشعوب وتآلفها . وذلك بعد أن برز الوعى الاجتماعى الى الميدان ، وبدت تباشير النضهة العربية على هذا النصف الاخير من هذا القرن ، وظهرت نتائجها الحلوة الباهرة بتحطيم امانى الاستعمار فى أكثر من معركة واحدة ، وارتفعت مطارقها لتهوى على رأس الاستعمار نفسه .. وان غداً لناظره قريب .

الاســـلام والمدنية :

تلك هى الانتصارات المعنوية التى سجلها الاسلام فى بداية عهده حتى أخذ بناؤه يتشامخ ، ورقعته تتسع ، فتراه بعد أن اطمأن الى الوضع الروحى والخلقى وحقق حلم الانسانية بالرخاء والســلام والعدالة ، تفــرغ بعلمائه وفلاسفته وأدبائه وصناعته ومفكريه الى العمل المثمر المنتج ، تفرغ كل هؤلاء ليعطوا للانسانية حضارة من أزهى الحضارات ، وليتركوا للناس ميراثا غنيا بالفوائد حافلاً بجلائل الفتوح .

الانتصارات العلمية والعملية :

وسنلقى الآن نظرة عجلى على انتصارات الاسلام العملية والعلمية فى سائر الميادين والتى تضفى على المجتمع الصفة الحضارية والقيمة المدنية .

نقــد تعلم العرب اللاتينية والأسبانية ونقلوا عنهما ، حتى اذا اشــتد عودهم وتمثلوا ما نقلوه ، بدأت شخصيتهم العلمية تظهر وتنمو ولم يلبثوا ، كما يقول غوســتاف لوبون ، « أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب فانطلقوا من قيود التلمذة لليونان وأخذوا يختبرون مســائل العلم ويجربونها . قال (دولامير) ، صاحب تاريخ علم الفلك : « اذا أعددت بين الاغريق راصدين أو ثلاثة ثم نظرت الى العرب ، أمكنك أن ترى بينهم عددا كبيرا من الرصاد » .

وأما فى الكيمياء فيقول (غوستاف لوبون) : « انك لاتجد عالما يونانيا استند فى مباحثه الى التجربة ، مع أنك تعــد مئات من علماء العرب الذين قامت مباحثهم الكيماوية على التجربة ، فجابر بن حيان أستاذ لـ (لافوازيه) ، أبى الكيمياء الحديثة .

لقد عرف العرب الرياضيات فاخترعوا الجبر وتبقوه فى علم الهندسة ، وبرعوا فى الفلك فأقاموا المراصد فى دمشق وسمرقند والقــاهرة وفارس

وطليطلة وقرطبة ، وتوصلوا الى نتائج علمية لم يتوصل اليها العلم فى أوروبا الا بعد ألف سنة ، ونبغ منهم فى هذا العلم أمثال البتانى وأبناء موسى بن شاكر وأبو الوفاء البيروتى .

● وعرفوا الفيزياء والميكانيك واستغلوا مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب وأتقنوا فن الدباغة وتسقية الفولاذ . وثبت علميا أنهم هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهل الانفجار .

● وفى الوقت الذى كانت فيه أوربا تكتب على الرقوق ، وهى الجلود ، كان العرب يستعملون الورق وتزدهر فى بلادهم مصانعه وينتج عن ذلك نشاط فى حركة التدوين والتأليف والنقل يثرى المكتبات العامة والخاصة ويزود الثقافة العربية بزاد لا يفنى .

● واقتحم العرب البحر ، فخاضوا عبابه ، وأذلوا متونه بأساطيلهم ، واستخدموا فى الملاحة البوصلة فكانوا بذلك أول من استخدم هذا الاختراع الصينى فى أسفارهم .

● وبحثوا فى الجيولوجيا وتحولات الكرة الأرضية وأعلن ابن سينا أن هذه التحولات انما هى نتيجة تطورات بطيئة تمت بتعاقب العصور ،وجاء علم الأرض الحديث يثبت صحة هذه النظرية .

● وبحث علماء العرب فى النباتات واستخدموا الكثير منها فى أغراض طبية وأنشأوا لها الحدائق وزرعوا فيها أندرها وأجودها .

● وظهرت مواهبهم غنية خصبة فى الطب فأثروا بمؤلفاتهم المكتبة الغربية وظلت هذه المؤلفات مصدرا ومرجعا تعتمد عليه الجامعات الأوروبية فى تدريس هذه المادة ، ونبغ فيهم « أمثال الرازى » الذى بحث فى الحميات ذات البثور كالحصبة والجدرى وأمراض الاطفال وعلم التشريح ، و « على بن العباس» الذى كتب فى الطب النظرى والطب العملى ، والرئيس

« ابن سينا » الذى نقلت كتبه الى أكثر لغات العالم وظلت مرجعا عاما لأطباء العالم وأساسا للمباحث الطبية فى جامعات فرنسا وايطاليا طوال ستة قرون ، ولم ينقطع أطباء جامعة (مونبليه) عن شرح نظرياته وتدريس كتبه الا منذ أقل من قرن .

و « أبو القاسم » القرطبى أشهر جراحى العرب الذى اخترع كثيرا من آلات الجراحة ورسمها فى كتبه والذى قال فيه العالم الطبيعى الكبير (هاللر) : « كانت كتب أبى القاسم المصدر العام الذى استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر » .

● وعرف العرب علم الوقاية وأنشأوا المصحات وأقاموا المارستانات ، وبرعوا فى فن الصيدلة وتحضير العقاقير .

● ولم يهملوا الفنون فازدهرت الموسيقى والغناء فى بعض عهودهم ، وترقى فن العمارة وتميز ، بعد أن مر بأدوار تقليدية ، بطابع خاص ما تزال شواهده قائمة فى بلاد المجد المفقود ، فى قرطبة وأشبيلية والحمراء .

ما هو سبب الوهن :

هذه هى الدلالات التى يعرفها الناس ويتناقلها الرواة ، وتزدحم بها بطون الكتب وهى خير شاهد على أن الاسلام قد أوجد من العرب ومن معتنقيه جميعا أمة تعرف رسالتها وتدرك طبيعتها وتؤدى واجبها .. واجبها الذى ينحصر فى كلمة واحدة هى الدعوة الى الله والنهوض بالعلم وانى لو أفرطت فى ايراد الاماثيل واثبات الشواهد لأعيانى ذلك وأجهدنى لأن الكتب حافلة بأخبار العظمة .. عظمة الخلق الاسلامى ونبله ، فياضة بأنباء ذلك الطراز الرفيع من السلوك الاجتماعى والفردى الذى أتاح لدعاة الاسلام أن يسيطروا على معظم العالم القديم المعروف آنذاك ، وأن يجعلهم فى نظر الشعوب المغلوبة على أمرها هداة لا فاتحين ، ومهذبين لا منكلين .